البنيويةُ وأثرُ الاستشراقِ في الدراساتِ القرآنيةِ المعاصرةِ
دراسةٌ نقديةٌ

أ.د. حكمت عبيد حسين الخفاجي
علي شاكر سلمان العارضي
جامعة كربلاء/ كلية الشريعة والعلوم الاسلامية

Structuralism and the impact of Orientalism in contemporary Quranic studies - Critical study

Prof.Dr. Hikmat Obaid Hussein Al-Khafaji
Ali Shaker Salman Al-Ardhi
College of Sharia and Islamic Sciences / University of Karbala
Email: lys687775@gmail.com

ملخص البحث

لم ينفك المستشرقون يتعاملون مع النص القرآني في دراستهم له بأدوات غربية وافدة ، فطالما حرصوا على دراسة النص القرآني بمناهج غربية حديثة ، مستبعدين مناهج التراث الاسلامي عن ساحة الدرس القرآني ؛ ليتمكنوا من بسط سلطتهم الفكرية على الدارسين لهذا الحقل ؛ لذا توجه المستشرقون إدخال المناهج اللسانية الحديثة ، لاسيما المنهج البنيوي في الدرس القرآني المعاصر ، وقد حظيت تلك المناهج بعناية واسعة وسار على تبنيها دراسون كثر من أبناء التراث ، لاسيما ممن شغفوا في تطبيق المناهج الغربية على التراث مقتفين بذلك أثر أساتذتهم في محاولة اظهار علو كعب الثقافة الغربية على نظيرتها الاسلامية عبر بث أفكارهم وعلومهم ومناهجهم في الوسط الفكري القرآني .

الكلمات المفتاحية :المستشرقون ، الحداثيون ، البنيوية ، المناهج الغربية ، الوسط القرآني، الوسط الفكري ، الدراسات القرآنية المعاصرة .

Abstract

The orientalists did not cease to deal with the Qur'anic text while studying it with Western tools so they were always keen to study the Qur'anic text with modern Western approaches excluding the curricula of the Islamic heritage from the field of the Qur'anic study in order to be able to extend their intellectual authority to the scholars of this field so the orientalists directed to introduce modern linguistic approaches Especially the structural approach in the contemporary Qur'anic lesson until those curricula gained wide fame and were widely adopted by many scholars of heritage especially those who were passionate about applying Western curricula to heritage following in the footsteps of their teachers in an attempt to show the superiority of Western culture over its Islamic counterpart by spreading their ideas sciences and curricula in Quranic medium.

Keywords: orientalists modernists structuralism Western approaches the Qur'anic milieu the intellectual milieu contemporary Qur'anic studies.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى رسول الهدى محمد الأمين وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًا كثيرًا ، أمّا بعد :

فقد وجّه المستشرقون طاقتهم الفكرية و المادية لدراسة النص القرآني بكلّ ثقلهم ، وجنّدوا كل أدواتهم لغرض سبر أغوار النص القرآني ، وكان التوقع الاستشراقي أنْ يقفوا على وهن التراث القرآني بسهولة ولكن سرعان ما ارتد إليهم سعيهم خائبا ، وصدموا بقوة النص القرآني ومصدره الالهي ووقفوا على الحقيقة التي كانت نفوسهم لا ترغب في سماعها، ومنيت دراساتهم المغرضة في ساحة مصطلح الاستشراق ، وثقله على الاسماع العربية الاسلامية، لكن الهدف الغربي سرعان ما تغير وتبدّل ، فبدل من أنْ يدرسوا النص القرآني بأنفسهم وجهودهم ، بدأوا بدراسة النص القرآني بجملة من أبناء التراث نفسه ؛ بغية الحفاظ على ما عندهم من المكتسبات ؛ ولكي يتخلصوا من الثقل الذي لحق بدراساتهم نتيجة اسرافها وعدم موضوعيتها في الغالب ، فأنتجوا لنا مجموعة من الدارسين للنصّ القرآني بعقول غربية ؛ بهدف بث سموم الفكر الاستشراقي عبر أبواق خاصة وهم يراقبون من وراء جدار .

لقد أمدّ الاستشراق أعوانه وتلامذته بمنهجيات جديدة لدراسة النص القرآني، وأدوات لم تكن معهودة في دراسة التراث الاسلامي كالاعتماد على المنهجيات الغربية، واستعمال اللسانيات الحديثة ، أي العلوم الأوربية ومكتشفات عصر النهضة ، فضلا عن النظريات الغربية الالحادية التي أبتلت بها دراسات الحداثيين ، ومن أبرز الدراسات والأدوات التي زرعها الغرب في عقول أرباب الدراسات القرآنية المعاصرة ، هي عدم صلاحية المنهجية التراثية كونها من عوامل الماضي وأداة من أدوات التراجع الفكري فضلاعن عدم صلاحيتها للدرس القرآني الحديث ؛ لذا فقد برزت المنهجية البنيوية في الدرس القرآني المعاصر، كأداة منهجية خصبة للولوج إلى المعنى عبر بنية النص ، فسار عليها من غير شعور من يسعى لتلقف علوم الغرب دون تمحيص ؛ ولاريب أنّ الهدف من مثل هذه الدراسات هي إظهار

سلطة المستشرقين الفكرية والعلمية ، وتحقيق المطالب الاستشراقية بانزلاق الشعوب الاسلامية عن دينها ، وتراثها ؛ والركض وراء التطور الغربي المزعوم .

المطلب الأول : مفهوم البنيوية

البنيوية لغةً : لقد أثارت البنيوية ضجة علمية كبيرة في الوسط الغربي، وابتلعت بظهورها كل المنهجيات الأدبية القبلية ، وراح يتغنى بها علماء الغرب لاسيما المستشرقين المعاصرين لظهورها ، حتى أضحت المنهج الأول على مستوى النقد الأدبي ، وللوقوف على ماهية المصطلح الوافد لابد من معرفة أصل الكلمة على المستوى اللغوي ، والتي أشتقت من الفعل الثلاثي "بنى" وتدل على معنى التشييد والعمارة كما في قوله تعالى :﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]، أو على معنى التماسك والترابط [2]، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى :﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[3]، أو على الكيفية التي يشيد عليها بناء ما النص [4].

البنيوية اصطلاحا : أمّا على المستوى الاصطلاحي فتعرف بأنّها " منهجية نقدية تحليلية، تقوم فلسفتها على اعتبار البنية الذاتية للظواهر بمعزل عن محيطها الخارجي والتأثيرات الأخرى، فهي تنظر إلى تلك الظواهر من الداخِل، وتفترض أنّها مغلقة على ذاتها"[5]، والبنيوية في معناها العام تهتم بدراسة ظواهر المجتمعات العامة " كالعقول ، والآداب ، واللغات ، والاساطير " وهي تنظر إلى كل تلك الظواهر بوصفها نظاما متكاملا ، فتدرس نسقها ، وتماسكها الداخلي لا من حيث تطورها التأريخي، كما تهتم بدراسة الكيفية التي تؤثر بها بنى تلك الكيانات على وظائفها ، أمّا المعنى الضيق للبنيوية فهي تسليط الضوء على

(١) سورة الذاريات : الآية ، ٤٧.
(٢) المعجم الوسيط : ابراهيم مصطفى واخرون ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة مصر ، ط٤، ٢٠٠٥،٧٢.
(٣) سورة الصف : من الآية ، ٤.
(٤) ينظر : قضية البنيوية دراسة ونماذج : عبد السلام المسدي ، دار امية ، تونس ، ط١، ١٩٩١م ، ١٠٥.
(٥) البنيوية؛ النشأة والمفهوم: محمد بلعفير، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٥، المجلد ١٦، ٢٠١٧م، ٢٤٢.

ايجاد نموذج لبنية هذه الظواهر ووظيفتها [١]، وبهذا نجد أنّ المعنى اللغوي للبنيوية يقترب من المعنى الاصطلاحي فكلاهما يتناول بنية النص إلّا أنْ الأول عدّها نوعا من التماسك ، والترابط ، بينما عدّها الثاني نظاما متكاملا يدرس التماسك الداخلي للنص .

ثانيا : نشأة البنيوية في الغرب والدراسات القرآنية المعاصرة

تعود البدايات الأولى للبنيوية إلى محاضرات المنظّر السويسري فرناند دي سوسير [٢]، وكتابه محاضرات في الألسنيات العامة، التي مثلتها مدرسة جنيف ثم استمرت بعده على يد الشكلانية الروسية التي مثلتها مدرسة براغ ، ثم جماعة مجلة "تل كل" التي تجلت في أعمال بعض النقاد الروائيين كفيليب سول وجوليا كريستيفيا [٣]، وهكذا أخذت البنيوية في التمدد في الغرب حتى نهايتها على يد جاك ديدرا [٤] ، وما يلاحظ عليها أنها كانت حركة ، أو ظاهرة علمية لسانية أكثر من كونها منهج نقدي .

لقد وصلت ردود الأفعال التي أثارتها البنيوية إلى العالم العربي ، فنالت شهرة واسعة في نفوس المتشوقين للحضارة الغربية ونتاجها ، وكان ذلك نتيجة ترجمة الكتب البنيوية الغربية على يد الكتاب العرب ،أو الدراسة في الجامعات الغربية على يد أساتذة البنيوية ، مما

(١) ينظر : العلمانيون والقرآن : احمد الطعان ، ٦٨٩ .

(٢) فرناند دي سوسير : عالم لغوي سويسري ولد عام ١٨٥٧م في مدينة جنيف ، درس في جامعة لايبزك وبرلين وجنيف حصل على الدكتوراه من لايبزك عام ١٨٨٠م، ثم عمل استاذا لعلم اللغة عام ١٩٠٧م ، لقد اسس دي سوسير مدرسة لغوية كاملة على الرغم من انه لم يؤلف الا كتابا واحدا، توفي عام ١٩١٣م ، ينظر : علم اللغة العام : فرناند دي سوسير ، ترجمة ، يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة ، مالك المطلبي ، دار افاق عربية ، بغداد، بلا. ط ، ١٩٨٥م ، ٣.

(٣) ينظر : مناهج النقد الادبي : يوشف وغليسي ، ٦٤. وينظر : مرجعيات في النقد والادب واللغة : ماجد الجعافرة واخرون، عالم الكتب الحديث ، عمان الاردن ، ط١،٢٠١١، ٢٢.

(٤) جاك ديدرا : هو فيلسوف وناقد فرنسي، ولد في مدينة الأبيار بالجزائر يوم ١٥ يوليو ١٩٣٠ ،وفي سن التاسعة عشر انتقل دريدا للعيش في فرنسا، حيث استطاع التسجيل في المدرسة العادية العليا، وهناك بدأ يعد لمحاضرات فوكو وتعرف عليه شخصياً كما تعرف على العديد من المفكرين الفرنسيين المشهورين في وقت لاحق ومنذ عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٤ كان مساعداً في جامعة السوربون، قبل أن يصبح مدرساً للفلسفة في غراندس ايغولوس في باريس ، يعد دريدا أول من استخدم مفهوم التفكيك بمعناه الجديد في الفلسفة، وأول من وظفه فلسفياً بهذا الشكل ، وتوفي في باريس يوم ٩ أكتوبر ٢٠٠٤ .للمزيد ينظر : https://ar.wikipedia.org/wiki

ولد تيارا لسانيا جديدا في حقل الحداثة العربي قائم على المنهج البنيوي بفروعه كافة سواء التكوينية ، أو التوليدية ، أو التركيبية ، وإلى هذا أشار بعض الباحثين :" وقد شاعت البنيوية بين النقاد العرب في نهاية القرن العشرين مع تيارات الحداثة الوافدة ... ولهجت بها أقلام كثيرة من نقاد تلك المرحلة بالبلدان العربية وغيرها من المتأثرة بالثقافة الغربية "[1]، وعليه يمكن القول أنّ البنيوية قد وصلت إلى العالم العربي بعد موتها بفترة طويلة مع ذلك حرص الحداثيون العرب على ممارستها في حقل الدراسات القرآنية المعاصرة .

المطلب الثاني: المنهج البنيوي عند المستشرقين

إنّ الحديث عن المنهج البنيوي وتطبيقه على الدرس القرآني في الدراسات الاستشراقية يسير وفق اتجاهين، الأول: هو قبل بلورة المصطلح وهذا يتمثل بدراسة جملة من المستشرقين، منهم المستشرق الالماني تيودور نولدكه في كتابه تأريخ القرآن ، والمستشرق المجري جولد زيهر في كتابه مذاهب التفسير الاسلامي ، والمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير في كتابه القرآن وغيرهم ، بينما يتجلى الاتجاه الثاني بعد بلورة المصطلح الحديث، وهذا يظهر في جهود المستشرقين الذين توجهوا لدراسة لغة القرآن وفي مقدمتهم المستشرق كارل بروكلمان[2]، في كتابه "فقه اللغة السامية" ، الذي سلط الضوء فيه على الجانب البنيوي التركيبي للغة عبر تناوله الدرس النحوي والصرفي والمعجمي ، ومحاولة مقارنته باللغات السامية الأخرى ، فقد سلط الضوء في المستوى الصرفي على الأوزان والتذكير والتأنيث، ومسألة الصفات ، أمّا في المستوى النحوي فقد سلط الضوء على بناء الجملة من الفعل والفاعل ، وحركة الكلمة العربية ، أمّا في المستوى المعجمي فقد سلط الضوء على أصل

(١) النقد الادبي المعاصر البنيوية وما بعدها : محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف للطباعة والنشر ، مصر، بلا . ط ، ٢٠٠٧، ٣٧.

(٢) كارل بروكلمان : مستشرق الماني ولد بروكلمان في مدينة روستوك ، حصل على الدكتوراه من جامعة ستراسبورگ عام ١٨٩٠ . عمل أستاذاً في جامعات برسلاؤ وبرلين. من اهم اعماله ، كتاب تأريخ الأدب العربي و»نحو السريانية وآدابها» و المعجم السرياني ، النحو العربي ، توفي ٦ مايو ١٩٥٦م. ينظر : موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي ، ٩٤ـ ١٠٥.

الكلمات ، والأعداد وطريقة نطقها مع مقارنتها مع غيرها من اللغات السامية الاخرى[١]، والحال ذاته مع المستشرق الالماني برج ستر سر[٢]، الذي درس اللغة العربية بنيويا عبر كتابه التطور النحوي للغة العربية ، الذي سلط الضوء فيه على دراسة اللغة العربية من جميع مستوياتها في ضوء اللسانيات الحديثة .

وفي هذا المضمار تأتي دراسة المستشرقة الألمانية أنجيليكا نويفرت، التي وسمتها بـ "دراسات حول السور المكية، ١٩٨١" ، والتي تُعدّ مَعلمًا مهما في تأريخ هذا المنهج ، لقد أفترضت الدراسة مجموعة من المعايير الأسلوبية ، والإيقاعية والمضمونية ؛ لدراسة وتقسيم السور القرآنية ، و تكريسها كوحدة أدبية تركيبية للقرآن في الدرس الغربي، ولاريب أنّ هذا الاتجاه قد أثار عددًا من الانتقادات، تتعلّق في مدى القدرة على تطبيق هذه المناهج الوافدة على القرآن، ومدى صلاحية البنى المفترضة لطبيعة القرآن الكريم ، اذ هي تمثّل بالفعل استكشافًا لنظامه لا فرضًا للنظام عليه، وبناءً على ذلك يمكن عدّ هذه الدراسة كمحاولة لمساءلة هذا الاتجاه ممثلًا بالخصوص في المنهج البنيوي المنضبط للمستشرقة ، وبحثه في ضوء الانتقادات المرتبطة بكفاءة المناهج وملاءمة الأنظمة المفترضة لاستكشاف بناء النص[٣]،ومن الدراسات التي تبنت نشر المنهج البنيوي في الدراسات القرآنية دراسة المستشرق "ألن" [٤]، الذي سلط الضوء فيها على الإختلافات البنيوية اذ يقول :" إنّ الاختلافات في البنية والخطاب أصبح يُنظر اليها باعتبارها انعكاسات دقيقة ، ومعقولة

(١) ينظر : فقه اللغات السامية : كارل بروكلمان ، ترجمة رمضان عبد التواب ، جامعة الرياض ، بلا .ط، ١٩٩٧، ٤٥ ، ٤٧، ٨٦، ١١١، ١١٣، ١١٤ .

(٢) برجستر سر: مستشرق ألماني ولد عام ١٨٨٦م ، اهتم باللغات السامية وقراءات القرآن ، كان له اثر كبير في نشر كتاب تأريخ القرآن لنولدكه ، توفي عام ١٩٣٣م « . ينظر : موسوعة المستشرقين : عبد الرحمن بدوي ٨٥ ٨٧ .

(٣) msa-alt-at-tfsyr-al-bnywy-llqr-aan/69/https://tafsir.net/translation

(٤) السير ألن جاردنر : مستشرق انجليزي وعالم لغويات وفقيه لغوي مشهور ، ٢٩ مارس ١٨٧٩ في إلثام من ضواحي لندن ، يعد من أشهر علماء الآثار المصرية، وله عنها: أجرومية اللغة المصرية، ومصر الفراعنة ، ١٩ ديسمبر ١٩٦٣ في أوكسفورد. للمزيد ينظر المستشرقون : نجيب العقيقي،٢/ ٦٦٩.

أكثر من عشرين عاما تلك التي تمت خلالها تلاوة الكلام "[١].

ولقد أدلى المستشرق "فريدمان"[٢] بدلوه في المجال البنيوي، لاسيما في دراسته للنص القرآني عبر اثارة الأسئلة حول الأساسات الفلسفية التي تقوم عليها المناهج البنيوية ذاتها أي الثنائية ؛ لتتجلى عنده القراءات التزامنية للقرآن في التقسيمات الحدّية بين الشفاهة والكتابة، أو بين النصّ والتقليد، أو الغرابة والألفة، أو المركز والمحيط، أو الشكل والمضمون، وهي المركبات الثنائيات التي لا تتناسب على حد زعمه مع التركيب الذي ينطوي عليه نصّ إلهي، وهنا يشير المستشرق إلى مسألة مهمة وهي أنّ عملية النقد لا تعني الانتقال بالقرآن من الدراسات البنيوية لما بعدها، بل تحاول جعل نقوداتها بداية لتوليفات منهجية تستفيد من كل الوجوه و المقاربات حتى تلك التي قدمها أرباب التراث التقليدي الإسلامي ، بغية فهم النص القرآني فهما أعمق يتجاوز هذه الرغبة في تقييده للتخلص من غرابته، والتي تمثّل الأساس الأعمق للاشتغال الغربي تجاه القرآن[٣] ومن الجهود الاستشراقية التي أهتمت بالمنهج البنيوي هي جهود المستشرقة البلغارية جوليا كريستيفا [٤]، حيث أجمع الباحثون على أنّ مفهوم التناص قد أنبثق من بحوثها التي نشرتها في مجلة تل كايل ، وأعيد نشرها

(١) موقف المستشرقين النقاد من القرآن الكريم واعجازه البلاغي ، الجوهرة بنت بخيت الجهجاه، بحث الكتروني منشور على موقع: https://bfla.journals.ekb.eg/article .802

(٢) فريدمان : مستشرق سلوفاكي من اصول يهودية ولد في تشيكوسلوفاكيا وهاجر إلى فلسطين مع والديه في عام ١٩٤٩، درس البكلوريوس في اسرائيل والدكتوراه في كندا تقلد العديد من المناصب منها رئيس معهد الدراسات الآسيوية والدراسات أفريقية بين ١٩٧٥-١٩٧٨، رئيس مدرسة تخرج من ١٩٨٠-١٩٨٣، عميد العلوم الإنسانية من ١٩٨٥-١٩٨٨، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، هو الآن أستاذ فخري في الدراسات الإسلامية في الجامعة العبرية في القدس. للمزيد ينظر : https://www.iicss.iq/?id=14&sid

(٣) ينظر : «Interrogating Structural Interpretation of the Qur'ān»، والمنشورة في Der Islam، عام ٢٠١٢.

(٤) جوليا كريستيفا : هي مستشرقة و فيلسوفة بلغارية وناقدة أدبية ومحللة نفسية وناشطة نسوية، وُلدت في ٢٤ يونيو من عام١٩٤١م، تعيش في فرنسا منذ منتصف ستينيات القرن العشرين. وهي الآن أستاذة فخرية في جامعة باريس ديديرو. ألّفت أكثر من ٣٠ كتابًا، منها: قوى الرعب، وأساطير الحب، والشمس السوداء: الاكتئاب والسوداوية، وبروست والإحساس بالزمن، وثلاثية أنثى عبقرية. للمزيد ينظر https://ar.wikipedia.org/wiki

في مجلات أخرى فضلا عن كتابها " نص الرواية مقاربة سيمائية لبنية خطابية متحولة " الذي تؤكد فيه أنّ النصوص إنّما هي تحول وامتصاص لنصوص أخرى ، وكل تلك الكتابات تحاول الأشارة إلى أنّ نصوص القرآن الكريم إنّما هي امتصاص لنصوص الكتاب المقدس[١]، وعلى النهج نفسه سار المستشرق روجيه غارودي[٢]،الذي يقول : "لن يتردد بنيويو الجيل التالي لليفي شتراوس في الأنتقال إلى الحد الذي سيقودهم إلى تخيل تأريخ هو محض اشتغال للبنية ، تأريخ بلا مبادرة تأريخية، تأريخ بلا بشر فنراهم يعلنون على لسان فوكو بعد اعلان نيتشة عن موت الله ، فإنّ ما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الله ، أو موته بقدر ما أنّه نهاية الانسان "[٣]، ولعل هذه أبرز الدراسات التي حاولت توجيه المنهج البنيوي نحو الدرس القرآني وأسست لنشره في التراث الاسلامي عبر تلامذتهم ولتتركز لديهم نظرية السلطة.

المطلب الثالث: البنيوية عند أرباب الدراسات القرآنية المعاصرة

لقد بدأت الاشكالية في دراسة النص القرآني بنيويا بعد أنْ انتقلت البنيوية إلى العالم العربي في سبعينيات القرن العشرين، أي بعد موتها في الغرب بعقد من الزمن على يد جاك ديدرا [٤]، اذ بدأ جملة من الحداثيين العرب في تطبيق مبادئ المنهج النقدي البنيوي على النص القرآني ، مستلهمين ذلك من بعض الكتّاب الغربيين ممن تبنوا المنهج النقدي البنيوي في دراسا تهم التي يُخضِعون فيها النصوص الدينية للنقد البنيوي على أنّها نصوص أدبية بشرية ابداعية كالمستشرق جاكبسون ، أو عبر تلقى نظرية موت المؤلف عند المستشرق

(١) ينظر : النص القرآني دراسة بنيوية : باب العياط نور الدين ، اطروحة دكتوراه جامعة الحضارة ، الجزائر ، ٢٠١٤ ٢٠١٥م، ١١٩.

(٢) روجيه غارودي : مستشرق فرنسي، ولد ١٧ يوليو ١٩١٣، اعتنق الاسلام عام ١٩٨٢م، وتزوج من فتاة عربية حصل جارودي على درجة الدكتوراه الأولى سنة ١٩٥٣ من جامعة السوربون عن النظرية المادية في المعرفة، وتوفي في – ١٣ يونيو ٢٠١٢.للمزيد ينظر : https://ar.wikipedia.org/wiki/%D%8B1

(٣) في اصول الخطاب الجديد مارك انجينيو ، ترجمة وتقديم احمد المديني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٢، ١٩٨٩م، ١٠١.

(٤) ينظر : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك : عبد العزيز حمودة ،عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ١٣ .

رولان بارت ، أو عند القول بالتناص عند المستشرقة كريستيفيا ، ولا ريب أنّ هذا الأنتقال كان لأسباب عدة منها : ترجمة الكتب الثقافة الغربية فيما يتعلق بالبنيوية على يد جملة من المفكرين العرب ، ومنها تأثر وافتتان بعض الباحثين العرب بكل ما يدور في البلاد الغربية ، وهذا ما تفصح عنه مقولاتهم : "نحن القراء طرف في علاقة طرفها الآخر النص نحن نبدع النصوص حين نقرأها ، ونحن بالقراءة نُقيّم حياة النصوص ، أو نشهد على موتها ، وأنّ نمارس النقد معناه أنْ نشارك في دورة حياة لثقافتنا "[1] ، ولعل الباحث قد خلط بين التلقي والبنيوية عبر القول بأنّ القارئ هو مبدع النص ، وقد ذهب بعض الدارسين للنص القرآني إنّ الثقافات السابقة قد أحدثت خللا بنيويا في النص " إنّ الوضعيات الاجتماعية المشخصة في المجتمع العربي بما أنطوت عليه من سمات ، ومطالب اجتماعية اقتصادية ، وسياسية وثقافية وغيرها هي التي تدخلت في عملية خلخلة النص القرآني ، وتشضيه وتوزيعه بنيويا ووظيفيا في اتجاهات طبقية ، وفئوية ، وقومية أثنية متعددة ، وأتى ذلك على نحو ظهر فيه هذا النص معادا بناءه وفق قراءات متعددة محتملة ..."، ولم يتخلف الجابري عن الخوض في المنهج البنيوي لاسيما في كتابه التفسير الواضح أسباب النزول ، تلك الدراسة التي تناول فيها بنية النص القرآني وحاول على أساسها ترتيب النص القرآني ترتيبا حسب أسباب نزوله في محاولة تقديم فهم جديد ، ومعاصر للقرآن الكريم قائم على الاتساق والتناغم في اللغة الدينية للنص القرآني [2].

ولاريب أنّ أهم طرق سلطة الاستشراق البنيوية في الدراسات القرآنية المعاصرة هي التركيز على اهدار سماوية النص القرآني وخصوصيته ،عبر تطبيق المبادئ البنيوية كالقول بـ "موت المؤلف" التي ترجمها الحداثيين العرب بطريقة حاذقة فلم يصرحوا عن ذلك علنا ، وإنّما تبنوا مسألة أنسنة النص القرآني التي هي صورة أخرى لفكرة موت المؤلف في المنهج

(١) في معرفة النص ، دراسات في النقد الادبي : حكمت صباغ الخطيب، دار الافاق الجديدة ، بيروت لبنان ، بلا . ط ، ١٩٨٣، ٥.

(٢) ينظر: النص القرآني وأليات الفهم المعاصر : حمادي بو هواري، اطروحة دكتوراه ، جامعة وهران ، الجزائر ، ٢٠١٢-٢٠١٣ ، ٤٦.

البنيوي والتي تعني نزع القداسة عن النص القرآني ، ودراسته كأي نصّ بشري آخر؛ لذلك نجد أنّ جل الحداثيين الدارسين للقرآن لا يصرحون بكلمة الكتاب ، ولا بكلمة القرآن وإنّما بكلمة النصّ حتى جاءت تلك العبارة في عناوين مؤلفاتهم كما هو حال نصر حامد أبو زيد وكتابه مفهوم النص ؛ لذا يذهب بعض الباحثين إلى أنّ اطلاق لفظ النص " ليس بالمفهوم الذي أستعمل عند الأصوليين الذي يكون لفظه دليله ، ولا يتطرق اليه احتمال، وإنّما حسب المفهوم المتداول به في الدرس اللساني عند أصحاب التيار البنيوي وهو ما يقابله اللفظ الأعجمي(Texte) الذي يدل على معنى النسيج في تداخل خيوطه و تشابكها "[1]، وكذلك الحال عند أركون في تقديمه للتحليل السيميائي ، والألسني اذ يقول " سوف نعلق أو نعطل كل الأحكام اللاهوتية التي تقول أنّ الخطاب القرآني يتجاوز التأريخ كليا إلى أنْ نكون وضحنا كل المشاكل اللغوية ، والسيميائية والتأريخية والانثربولوجية التي اثارها القرآن كنص "[2]، وبهذا تظهر آثار المنهج البنيوي واضحة عنده عبر القول بأنسنة النص ، ونزع قداسته وتعطيل أحكامه ؛ لأنّه ينطلق من مفهوم علماني إذ لا يؤمن بقداسة النص "إنّ النظرة العلمانية تعلن بأنّها تذهب إلى أعمق الأشياء إلى الجذور من أجل تشكيل رؤيا أكثر صحة وعدلا ، ودقة "، ولم يتخلَ أركون عن البنيوية على الرغم من شروعه في المنهج التفكيكي "إنّ البنيوية تمثل مرحلة لابد منها من أجل تحليل المجتمعات والنصوص والثقافات "[3] والذي يظهر هنا أنّ أركون لا يريد التخلي عن أي منهج حداثي مادام فيه رائحة غربية حتى وإنْ كان غير مقتنع به، وما هذا إلّا مظهر من مظاهر سلطة الاستشراق المنهجية عليه .

ولابد من الاشارة إلى دراسة الحداثي المصري "أمين الخولي" الذي يتجرأ على القرآن الكريم حينما يرى أنّ تأويل النص القرآني قائم على كونه نصّا أدبيا محضا غير متأثر بأي

(١) الهرمينيوطيقيا والنص القرآني نقد وتجريح : سمير حميد ، دار البيارق ، عمان الاردن ، بلا . ط، بلا . ت، ٢.

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني : محمد اركون ، ترجمة هاشم صالح ، دار الطليعة ، بيروت لبنان ، ط١، ٢٠٠١، ٢١.

(٣) تأريخية الفكر : الاسلامي محمد اركون ، ٢٥٦.

اعتبار[١]، والمنهج البنيوي عند أدونيس كان أكثر حدة من غيره ؛ لأنّه كان يشبه جاك ديدرا كثيرا وكأنّه يقلده كما يرى أحد الباحثين اذ يقول :" إنّ تجربته أي أدونيس كانت أكثر التجارب شبها بديدرا ، فديدرا ينتقد الفكر الغربي بوصفه فكرا متمركزا حول المنطق وأدونيس يأخذ على الفكر العربي تمركزه حول الوحي، ديدرا يدين التمركز حول الصوت وأدونيس يدين الشفاهية ، ديدرا وأدونيس يشتركان في الدعوة إلى اللامركز، والتعدد وعلم الكتابة بل أنّني أجد تماثلا في المصطلح أيضا فما يسميه ديدرا التخريب يسميه أدونيس الخلخلة والتفجير "[٢]، وبهذا أهمل الباحث صلب المنهج البنيوي ، وجعل فكره حبيس أصول البنيوية وهذا واضح من قوله :" منذ أنْ أصبح الوحي موجودا في لغة ، ومنذ أنْ تحول إلى نص مكتوب ، صار بوصفه كتابة هو المتكلم ، وصارت اللغة هي الذات"[٣]، وعليه فالسلطة المنهجية للاستشراق صارمة عند أدونيس حاكمة عليه بحيث قد وصل به مستوى السلطة الاستشراقية إلى تبني فكرة موت المؤلف ، أو عزل النص التي هي روح المنهج البنيوي ، متأثرا بفلاسفة الغرب كـ "نيتشه" ، و "رولان بارت" والذي يعدان رائدا المنهج البنيوي ، إذ يقول : " إنّ كتاب جبران هدمي وهو يضعنا في مناخ العدمية، نشعر أنّ الاخلاق والقيم الدينية تهدمت في العالم الذي يسكنه المجنون ..... ولذلك رأينا أنّ جبران قتل الله هو كذلك على طريقته حين قتل النظرة الدينية التقليدية " [٤]، الحال ذاته عند الحداثي علي حرب اذ يقول :" وكينونة النص تقتضي بالنظر اليه من دون احالته لا إلى مؤلفه ، ولا إلى الواقع الخارجي "[٥]، لاريب أنّ هذه العبارة هي تكرار لأفكار نيتشة[٦]،

(١) التفسير نشأته تدريجه تطوره : امين الخولي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بلا ط، ١٩٨٧، ٧٥.
(٢) https://lahodod.blogspot.com/01/2017/Structural-Arabic.html
(٣) النص القرآني وافاق الكتابة: ادونيس ، دار الاداب ، بيروت لبنان ، بلاط ، ١٩٩٣، ٤٢.
(٤) الثابت والمتحول صدمة الحداثة : ادونيس ، ١٧٨ـ ١٧٩.
(٥) نقد النص : علي حرب ، ١٢.
(٦) فريدرك نيتشة : عالم وفيلسوف الماني ، ولد في مدينة بروسيا عام ١٨٤٤م، مات ابوه وهو طفل صغير فقلفت على تربيته مجموعة من النسوة المتدينات ، كان يطلق عليه باقس الصغير ، تاثر كثير بافكار شوبنهور ، توفي عام ١٩٠٠. ينظر : ملحدون محدثون معاصرون : رمسيس عوض ، ١٨.

وهي تصرح بفكر البنيوية بموت المؤلف ، في حين أكد بعضهم على مفهوم التناص[١]، الذي تعتمده البنيوية كأبرز مقوماتها " أمّا الألسنيات الحديثة وعلم السيمائية ، فيتيحان لنا اكتشاف الحيوية الخاصة بكل نصّ يعيد مزج واستعمال العناصر المتفرقة ، والمستعارة والمفتعلة من سياقها النصي السابق وذلك ضمن منظورات جديدة ، ويمكننا في هذا الصدد أنْ نبين في كل قصة رواها القرآن كيف أنّ الخطاب السردي يفتتح تجربة جديدة للتأله عن طريق توظيف المواضيع والمشاهد وحتى المفردات المستعارة من نصوص سابقة "[٢]، وفي اطار مدح المنهج البنيوي يقول الحداثي كمال أبو ديب :"ليست البنيوية فلسفة ولكنها طريقة في الرؤيا ومنهج في معاينة الوجود ، ولأنّه كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات تأريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أنْ نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه"[٣]، وبهذه القول يحُسم الامر على أنْ الحداثيين العرب كان همهم الوحيد التطلع للفكر الغربي ليس إلّا، ولا نريد الاسهاب في سرد آراء الحداثيين العرب في تبني المنهجية الغربية البنيوية وترسيخها في تراثهم الديني ، بقدر ما نريد اظهار أهم الدراسات الحداثية، وأشدها حرصا على تلقى السلطة الاستشراقية عبر ممارسة المنهج البنيوي في حقل الدراسات القرآنية المعاصرة .

المطلب الرابع: نماذج تطبيقية لسلطة الاستشراق البنيوية

والنماذج على وجود السلطة البنيوية للاستشراق في حقل الدراسات القرآنية المعاصرة كثيرة نكتفي بدراسة بعض المصطلحات القرآنية التي عكف بعض الحداثيين على دراستها كدراسة المفكر السوداني الحاج حمد في التفريق بين المصطلحات القرآنية ، إذ فرق بين كلمة "المس" الدالة على التفاعل الوجداني والنفسي ، وكلمة "اللمس" اي التناول باليد الواردة

(١) التناص : هو احد المفاهيم التي وضفتها الحركة البنيوية في دراسة النص ويعني «عملية استبدال من نصوص اخرى اي عملية تناص ،ففي فضاء النص تتقاطع اقوال عديدة مأخوذة من نصوص اخرى ينظر : مناهج النقد المعاصرة : صلاح فضل ، ١٢٨ .

(٢) الفكر الاسلامي نقد واجتهاد : محمد اركون ، ١٤٥ .

(٣) جدلية الخفاء والتجلي: كمال ابو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط١، ١٩٧٩، ٨٧.

في قوله تعالى :﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝٧٨ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾[١]، وبناء على تطبيق المنهج البنيوي على هذه الآية المباركة يصل الحاج حمد إلى نتيجة هي أنّ القرآن الكريم لم يمنع لمس المصحف بل منع من المس الذي يحتاج إلى تفاعل خاص ، وهذا عكس ما عليه في الفقه الاسلامي فالتحريم يشمل اللمس المباشر إنْ لم يكن المكلف على طهارة [٢]

وكذلك الحال دراسة الحداثي السوري محمد شحرور الذي سلط الضوء فيها على مصطلحي " الكتاب ، القرآن "، في كتابه الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، حيث عمد إلى التفريق بين المصطلحات المذكورة مستندا إلى الآية الكريمة ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾[٣] ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤]، تلك الآيات، وغيرها شكلت ضبابية فكرية لدى شحرور فعمد إلى دراستها بنيويا اذ يقول :" تصادفنا في المصحف إلى جانب لفظة الذكر الألفاظ التالية الكتاب والفرقان ،والقرآن فهل هذه الالفاظ كلها تشير إلى معنى واحد ؛ لأنّها مترادفات أم إنّها تشير إلى معان مختلفة ، وإذا كانت معان مختلفة فما معنى كل لفظة"[٥]، ثم يستمر شحرور في تطبيق المنهج البنيوي عبر تتبعه لمفردة الكتاب ودلالتها في اللغة ثم في سيرة النبي ﷺ وحديثه مستدلا بتقسيم المجامع الحديثية إلى كتب ، ككتاب الصلاة ، وكتاب الزكاة ، وكتاب الحج ... الخ ، على أنّ هذا المعنى وارد في القرآن الكريم بقوله تعالى :﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[٦]، فيخلص إلى نتيجة هي أنّ كلمة الكتاب لا تعني القرآن ، وفي نفس المضمار دراسته للآيات المحكمة والمتشابهة على أنّها كتابين : الأول كتاب محكم ، والآخر كتاب متشابه وليس الأمر كتابا واحدا فهو يفرق بين كتاب النبوة ، وكتاب الرسالة على حد زعمه ، إذ يقول :"وعليه فالكتاب يحتوي

(١) سورة الواقعة : الآيات ، ٧٧، ٧٨، ٧٩.
(٢) جدلية الخفاء والتجلي: كمال ابو ديب، ٧-٨.
(٣) سورة الحجر : الآية ، ١.
(٤) سورة الحجر : الآية ، ٩.
(٥) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة : محمد شحرور ، ٥١.
(٦) سورة النساء : الاية ، ١٠٣.

كتابين رئيسين الكتاب الأول كتاب النبوة .... والكتاب الثاني كتاب الرسالة..."[١].

فبعد بيان شحرور البنيوي وصل إلى نتيجة أنّ الكتاب في أصله كتابين الأول ضم الآيات المحكمة ، والآخر ضمّ الآيات المتشابهة ، والثاني أيضا يقسم إلى كتابين الأول أطلق عليه السبع المثان ، والآخر أطلق عليه القرآن مستدلا بقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[٢]، ثم يقول : " وها هنا واضح تماما أنّ القرآن شيء والسبع المثاني شيء آخر وهي ليست من القرآن بل هي من الكتاب"[٣] ، ويرى شحرور في اطار دراسته البنيوية أنّ القرآن جزء من الكتاب بدليل العطف الوارد بين المصطلحات القرآنية الذي جاء على نوعين من العطف عطف العام على الخاص ، وعطف التغاير ، وعليه فعندما ذكرت كلمة الكتاب قال "هدى للمتقين " لأنّ مضمون الكتاب يشتمل على أحكام العبادات والمعاملات والاحكام ، وعندما ذكرت كلمة القرآن " هدى للناس " لأنّ هذه اللفظة تشمل المتقين وغير المتقين ، عليه يجب التفريق بين الكتاب والقرآن [٤]، لاريب أنّ شحرور قد أفرط في الاعتماد على المنهج البنيوي في التفريق بين المصطلحات القرآنية ؛ لأنّه لم يجيد قراءة النص القرآني عبر مناهج رصينة تراعي حالة النص ، وظروفه بل قرأه قراءة سطحية داخل سياق اللغة وهذا عين ما يريده رعاة السلطة.

(١) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة : محمد شحرور ، ٥٥.
(٢) سورة الحجر : الآية ٨٧.
(٣) المصدرنفسه.
(٤) ينظر الكتاب والقرآن : محمد شحرور ، ٥٧.

الخاتمة

أولا: إنّ عملية التفريق بين المصطلحات القرآنية لم يكن قصب السبق فيه من نصيب الحداثيين فقد سبقهم في ذلك علماء التراث الاسلامي بمناهجه الأصيلة ، وتوافروا على بيان الوجوه المرادة والمحتملة من تلك المصطلحات ضمن ضوابط صارمة ، تارة قائمة على الاثر وأخرى على الاستدلال النظري .

ثانيا : لم يكن تطبيق المنهج البنيوي في الدراسات القرآنية المعاصرة بريئا ، ومما يدل على ذلك موافقته المطلقة للدراسات البنيوية الاستشراقية حول النص القرآني ، وكذلك النتائج التي توصل اليها هي نتائج الغربين نفسها وإنْ اختلفت الصياغة والاسلوبية ، وعليه فإنّ غالبية تلك الدراسات ترمي إلى مخالفة ما عليه الموروث الاسلامي وتخطئته ، وابراز علو كعب المنهجية الغربية على نظيرها الاسلامية ، ولاشك أنّ هذا مراد أرباب السلطة .

ثالثا : هزالة الطرح الحداثي ووهنه وتبعيته ، جعلته يفقد الروح العلمية الموضوعية كونه يسير على نسق معد مسبقا مما حدى به إلى الافراط في تناول تلك المنهجيات بحيث أنّ المتأمل في تلك الدراسات يجدها محاولات لأثبات الولاء للثقافة الأعلى إنْ صح التعبير وليس دراسة موضوعية علمية بحتة هدفها الوقوف على معان جديده للنص القرآني .

رابعا : وهناك جملة أسئلة تفرض نفسها في اطار هذه الدراسة ، هل هذه المنهجية صحيحة ومجدية في دراسة النص القرآني. ولو كانت البنيوية منهجا علميا صحيحا لماذا أفل نجمها بعدما سطع في سماء الفكر الغربي. لماذا ترك أرباب الدراسات القرآنية المعاصرة المناهج التراثية واستقتلوا على تطبيق المناهج الغربية. ماهي المخرجات التي حصدوها من تلك الدراسة ؟كل تلك التساؤلات لا تجيبنا عنها إلّا كلمة واحدة هي "حاكمية أو سلطة الاستشراق".

المصادر والمراجع

١. المعجم الوسيط : ابراهيم مصطفى واخرون ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة مصر ، ط٤، ٧٢،٢٠٠٥.

٢. قضية البنيوية دراسة ونماذج : عبد السلام المسدي ، دار أمية ، تونس ، ط١، ١٩٩١م ، ١٠٥ .

٣. البنيوية النشأة والمفهوم: محمد بلعفير، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ١٥، المجلد ١٦، ٢٠١٧م، ٢٤٢.

٤. العلمانيون والقرآن : احمد الطعان ، ٦٨٩.

٥. علم اللغة العام : فرناند دي سوسير ، ترجمة ، يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة ، مالك المطلبي ، دار افاق عربية ، بغداد، بلا. ط ، ١٩٨٥م ، ٣.

٦. مناهج النقد الادبي : يوشف وغليسي ، ٦٤.

٧. مرجعيات في النقد والادب واللغة : ماجد الجعافرة وآخرون، عالم الكتب الحديث، عمان الاردن ، ط١، ٢٠١١، ٢٢.

٨. https://ar.wikipedia.org/wiki

٩. النقد الادبي المعاصر البنيوية وما بعدها : محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف للطباعة والنشر ، مصر ، بلا . ط ، ٢٠٠٧، ٣٧.

١٠. فقه اللغات السامية : كارل بروكلمان ، ترجمة رمضان عبد التواب ، جامعة الرياض، بلا .ط، ١٩٩٧، ٤٥ ، ٤٧، ٨٦، ١١١، ١١٣، ١١٤.

١١. موسوعة المستشرقين : عبد الرحمن بدوي ٨٥ ٨٧ .

١٢. https://tafsir.net/translation/69/msa-alt-at-tfsyr-al-bnywy-llqr-aan

١٣. المستشرقون : نجيب العفيفي،٢/ ٦٦٩.

١٤. موقف المستشرقين النقاد من القرآن الكريم واعجازه البلاغي ، الجوهرة بنت بخيت الجهجاه، بحث الكتروني .

١٥. "Interrogating Structural Interpretation of the Qur'ān"، والمنشورة في Der Islam، عام ٢٠١٢.

١٦. https://bfla.journals.ekb.eg/article .802

١٧. https://www.iicss.iq/?id=14&sid

١٨. https://ar.wikipedia.org/wiki

١٩. النص القرآني دراسة بنيوية : باب العياط نور الدين ، اطروحة دكتوراه جامعة الحضارة ، الجزائر ، ٢٠١٤ ٢٠١٥م، ١١٩.

٢٠. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D%8B1

٢١. في أصول الخطاب الجديد مارك انجينوا ، ترجمة وتقديم احمد المديني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٢، ١٩٨٩م، ١٠١.

٢٢. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك : عبد العزيز حمودة ،عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٧٨ ، ١٣ .

٢٣. في معرفة النص ، دراسات في النقد الادبي : حكمت صباغ الخطيب، دار الافاق الجديدة ، بيروت لبنان ، بلا . ط ، ١٩٨٣، ٥.

٢٤. النص القرآني وأليات الفهم المعاصر : حمادي بو هواري، اطروحة دكتوراه ، جامعة وهران ، الجزائر ، ٢٠١٢ ـ٢٠١٣ ، ٤٦.

٢٥. الهرمينيوطيقيا والنص القرآني نقد وتجريح : سمير حميد ، دار البيارق ، عمان الاردن ، بلا . ط، بلا . ت، ٢.

٢٦. القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني : محمد اركون ، ترجمة هاشم صالح ، دار الطليعة ، بيروت لبنان ، ط١، ٢٠٠١، ٢١.

٢٧. تأريخية الفكر : الاسلامي محمد اركون ، ٢٥٦.

٢٨. التفسير نشأته تدريجه تطوره : امين الخولي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بلا ط، ١٩٨٧، ٧٥.

٢٩. https://lahodod.blogspot.com/01/2017/Structural-Arabic.html

٣٠. النص القرآني وافاق الكتابة: ادونيس ، دار الاداب ، بيروت لبنان ، بلاط ، ١٩٩٣، ٤٢.

٣١. الثابت والمتحول صدمة الحداثة : ادونيس ، ١٧٨ـ ١٧٩.

٣٢. نقد النص : علي حرب ، ١٢.

٣٣. ينظر : ملحدون محدثون معاصرون : رمسيس عوض ، ١٨.

٣٤. مناهج النقد المعاصرة : صلاح فضل ، ١٢٨.

٣٥. الفكر الاسلامي نقد واجتهاد : محمد اركون ، ١٤٥.

٣٦. جدلية الخفاء والتجلي: كمال ابو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط١، ١٩٧٩، ٨٧.

٣٧. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة : محمد شحرور ، ٥١.